

## الملتقى الوطني: الأداء الصوتي للقرآن وأثره النفسي

- الاسم واللقب: العيد حديق
- الدرجة العلمية: أستاذ محاضر أ
- التخصص: اللغة العربية والدراسات القرآنية
- المهنة: أستاذ محاضر، مسؤول تخصص اللغة العربية والدراسات القرآنية
- مكان العمل: كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي
- البريد الإلكتروني: alaide1980@gmail.com
- رقم الهاتف: 0676788179
- عنوان المداخلة: مركزية الخطابي رحمه الله (ت:388هـ) في الدرس الصوتي القرآني

### ملخص

هذه المداخلة بعنوان: مركزية الخطابي رحمه الله (ت:388هـ) في الدرس الصوتي القرآني؛ وهي دراسة في جهود الخطابي رحمه الله التأسيسية في الإعجاز الصوتي التأثري في القرآن الكريم، وبيان أثر هذه الجهود فيمن جاء بعده. ولمعالجة هذا الإشكال؛ فإني قسّمتُ المداخلة إلى مقدمة ومقصدتين وخاتمة. أما المقدمة فقد مهدت فيها بالتعريف بالإعجاز الصوتي، والتعريف على أبرز رواد الدرس الصوتي في التراث العربي. وأما المقصد الأول؛ فقد عنونته ب: الخطابي رائد الإعجاز الصوتي التأثري، وجعلته في أولية الخطابي رحمه الله التاريخية في طرق باب الدرس الصوتي للقرآن الكريم، وما له من أثرٍ على المتلقين، وذلك من خلال ما ختم به كتابه (بيان إعجاز القرآن). وأما المقصد الثاني؛ أثر جهود الخطابي في المهتمين بالدراسات الصوتية القرآنية؛ فقد كان رصداً لتأثر من جاء بعد الخطابي بطرحه، واستثمارهم فيما كتب لاستنطاق مكان الدرس الصوتي، لا سيما المحدثين، كما فعل الرافعي ودراز رحمهما الله. وقد توصلت في الخاتمة إلى نتائج أهمها:

- الخطابي رحمه الله من الشخصيات الجديدة بالدراسة في قضية الإعجاز الصوتي التأثري؛ كونه من الرواد الذين أدرجوا الدرس الصوتي في المجال القرآني، ثم إنه جمع بين وصف الظاهرة وبيان الأثر، ولم يقتصر على أحدهما دون الآخر.
- تأثير القرآن الكريم حاصل في كافر الناس ومؤمنهم، وإنسهم وجنهم، بل وحتى في الجمادات، وقد دلت الخطابي رحمه الله على كل جزئية مما ذكر من القرآن الكريم نفسه.

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً، أمّا بعدُ:

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ما من الأنبياء من نبي، إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)<sup>1</sup>. ومعنى الحديث على ما ذكر أهل العلم؛ "أنّ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ انْفَرَضَتْ بِانْفِرَاضِ أَعْصَارِهِمْ، وَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ، وَمُعْجَزَةُ نَبِينَا صلى الله عليه وآله الْقُرْآنُ الْمُسْتَمِرُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَعَ خَرَقِ الْعَادَةِ فِي أَسْلُوبِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَإِحْبَارِهِ بِالْمُعْجَبَاتِ وَعَجْزِ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ عَنِ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مَجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ، فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ، مَعَ اعْتِنَائِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ فَلَمْ يَقْدِرُوا وَهُمْ أَفْصَحُ الْقُرُونِ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ الْمَعْرُوفَةِ"<sup>2</sup>.

وفي هذا النص للنووي رحمه الله (ت:676هـ) تقريرٌ أن أوجه إعجاز القرآن الكريم متعددة، ولا معنى للاقتصار على وجهٍ منها دون آخر؛ إذ أهل كل فنٍّ من العلوم يطلعون منه على وجهٍ يُناسب فهمهم وصنعتهم، وأهل كل عصرٍ يظهرون منه على ما يُناسب عصرهم وما يحصلون من الملكات والاستعدادات. قال ابن تيمية رحمه الله (ت:728هـ): "وَكُونُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُعْجَزَةٌ؛ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِهَةٍ فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ فَقَطُّ، أَوْ نَظْمِهِ وَأَسْلُوبِهِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ إِحْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ صَرْفِ الدَّوَاعِي عَنِ مُعَارَضَتِهِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ سَلْبِ قُدْرَتِهِمْ عَنِ مُعَارَضَتِهِ فَقَطُّ، بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مُعْجَزَةٌ مِنْ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ: مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّظْمِ، وَمِنْ جِهَةِ الْبِلَاغَةِ فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ، الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ الْعَيْبِ الْمَاضِي، وَعَنِ الْعَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْمَعَادِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا بَيَّنَّ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْأَقْبَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

<sup>1</sup> البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث 4981، ج6، ص182. و: مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا صلى الله عليه وآله، حديث 152، ج1، ص134.

<sup>2</sup> النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج2، ص188.

كُفُورًا) [الإسراء: 89] [...].، وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ النَّاسُ مِنَ الْوُجُوهِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، هُوَ حُجَّةٌ عَلَى إِعْجَازِهِ، وَلَا تَنَاقُضَ فِي ذَلِكَ، بَلْ كُلُّ قَوْمٍ تَنَبَّهُوا لِمَا تَنَبَّهُوا لَهُ<sup>1</sup>.

وإن من أوجه الإعجاز التي تنبه لها الأقدمون، وتوسع في تفاصيلها المتأخرون؛ الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. فقد جاءت إشاراتٌ إليه على سبيل المثال عند الرماني رحمه الله (ت: 384هـ) في (النكت في إعجاز القرآن)، في أبواب التلاؤم والفواصل<sup>2</sup>. قال رحمه الله: "والم تلاؤم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بين لمن تأمله. [...]. وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون في الشعر من المكسور، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق. والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما"<sup>3</sup>.

بل إن الرماني رحمه الله (ت: 384هـ) نبه في هذا الباب على أمرٍ لطيفٍ بديع؛ ألا وهو أن التحدي بالقرآن ابتداءً إنما كان إلى الإتيان بمثله من جهة الصوت والأداء؛ لأنه الأمر المدركُ عندهم، فلما علموا ما فيه من العلم وما يحمله من المعاني تُحْدُوا إليها بعدُ. قال رحمه الله: "ومخارج الحروف مختلفة، فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك.

والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولة على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان، في صحة البرهان، في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع، البصير بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما. وقد عم التحدي به للجميع لرفع الإشكال، وجاء على جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز، فقال عز وجل: (وإن كنتم على ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين)، ثم قال: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)، فقطع بأنهم لن يفعلوا. وقال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)، وقال: (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا

<sup>1</sup> ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج 5، ص 428-429.

<sup>2</sup> يُنظر: سيد لوهي وماجد النجار، مقال بعنوان "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم (نظرة في كتب الباحثين العرب القدامى والمحدثين)"، ص 33-34.

<sup>3</sup> الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص 96.

صادقين). ولما تعلموا بالعلم والمعاني التي فيه؛ قال: (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات). فقد قامت الحجة على العربي والعجمي بعجز الجميع عن المعارضة، إذ بذلك تبين المعجزة<sup>1</sup>.

ولعلنا بهذا التمهيد المبسر؛ استعجلنا التقديم بين يدي مسألتين هامتين هما: التعريف بالإعجاز الصوتي، والتعريف على أبرز رواد البحث الصوتي في التراث العربي، فنرجع إلى بيانهما كالآتي:

### أولاً: تعريف الإعجاز الصوتي:

قد علمنا أن من أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ الإعجاز الصوتي، ولم يحفل المتقدمون ممن تكلم في القضايا الصوتية للقرآن الكريم بوضع معالم واضحة لمصطلح (الإعجاز الصوتي)؛ على عادة الأولين في وصف الظواهر وتحليلها، دون الوقوف على الحدود المنطقية والتدقيقات المصطلحية.

وكذلك فعل المتأخرون<sup>2</sup>. وقد عبر عن هذه القضية؛ الباحث عبد العزيز أيت بها، فأحسن إذ يقول: "ومن وجوه إعجاز القرآن التي ألمح إليها القدماء دون تصريح، وصرح بها المحدثون دون تفصيل؛ (الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم)، ومفتاح هذا الوجه من القرآن نفسه، حيث وصفه الله سبحانه بكونه (أحسن الحديث)، وحث على سماعه والإنصات إليه، وترتيبه وتجويده، فقال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَشَّرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر: 23]"<sup>3</sup>.

ولذلك؛ فإننا سنحاول في هذا المقام أن نصل إلى صياغة لمصطلح (الإعجاز الصوتي) تنحو إلى الدقة والتحديد، فنقول:

(الإعجاز الصوتي) مركب وصفي، نُسب فيه إعجاز القرآن - عن طريق الوصف - إلى أحد أوجهه (وهو الجانب الصوتي)، وإذا كان (إعجاز القرآن) مركباً إضافياً، "معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل، محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الرماني، النكت، ص 96-97.

<sup>2</sup> يُنظر على سبيل المثال بحوث من قبيل: بلقاسم دفة، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - دراسة دلالية -، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان 2009. و: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - دراسة دلالية -، وهيبة بوشريط، مجلة التواصلية، جامعة المدية، 2017. فإنهم لم يعرجوا ألبتة على تحرير (المصطلح).

<sup>3</sup> عبد العزيز أيت بها، مقال بعنوان "الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم"، ملتقى أهل التفسير، تاريخ النشر: 2014/12/05.

<sup>4</sup> الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2، ص 331.

والجانب الصوتي من الدرس القرآني يُقصدُ به: دراسة الدلالة الصوتية للكلمة؛ من حيث النظر في صفات الأصوات من حيث الجهر والهمس، والرخاوة والشدة، والانطباق والانفتاح... ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتية كالنبر والتنغيم، ثم من حيث النظر في مخارجها المختلفة، وبحث العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتي للكلمة ومناسبتها لسياقها ونسقتها الدلالي<sup>1</sup>.

وإذا تأملنا هذا الكلام؛ وجدنا فيه شيئين اثنين: الأول وصف الظاهرة الصوتية؛ من نبر وتنغيم ومد وقصر وما إلى ذلك. والآخر بيان الأثر؛ وهو بحث الصلة بين التشكيل الصوتي للكلمة ومناسبتها لسياقها ونسقتها الدلالي.

فإذا أضفنا هذا إلى (الإعجاز)؛ فإنه يُمكن للباحث أن يخلص - في اطمئنان -، إلى أن مصطلح (الإعجاز الصوتي) هو: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به في الجانب الصوتي؛ وصفًا وأثرًا.

### ثانيًا: أبرز رواد البحث الصوتي في التراث العربي:

البحث الصوتي في التراث العربي، كان محل اهتمام العلماء على اختلاف تخصصاتهم؛ فإنه وإن بدأ عند (النحويين) في أبواب الإدغام والقلب والإبدال، وما إليها من مخارج الحروف وصفاتها وعوارضها؛ فإن (أهل العروض) كذلك أغنوا البحث الصوتي بدراسة أوزان الشعر العربي وإيقاعاته، و(لأصحاب البلاغة) ملاحظات صوتية نافعة في باب فصاحة الألفاظ وائتلاف أصواتها وسلامتها من التنافر، كما أن لأهل التجويد والقراءات وافر الحظ والنصيب من دراسة الأصوات العربية في إطار تصحيح الأداء القرآني والمحافظة عليه من اللحن والزلل.

"وإذا كان علم الأصوات في بداياته جزءًا من أجزاء النحو؛ فإنه سرعان ما انزوى عند أهل القراءات والتجويد، وزاد فيه هؤلاء الكثير من المباحث مستوحاةً من التنزيل العزيز، ولو ظل هذا العلم موضع عناية النحويين والصرفيين زمنًا أطول؛ لاغتنى الدرس النحوي والصرفي بالكثير مما يفتقده فيهما أهل النظر في علم الصوت الحديث"<sup>2</sup>.

والمقصود بالتنبيه في هذا المقام؛ الإشارة إلى أوائل من كان له إسهامٌ في البحث الصوتي، وما دام الحديث عن الخطابي رحمه الله؛ فسنكتفي ببعض من سبقه وعاصره، حتى نلّم بشيءٍ من محيط الرجل العلمي الذي تكونت فيه ملكاته، وخرجت فيه إلى الوجود مؤلفاته، وعلى ذلك فسنتصر على ذكر ثلاثة أعلامٍ هم: الخليل

<sup>1</sup> يُنظر: عبد الحميد هنداي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ص14.

<sup>2</sup> خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص5.

بن أحمد وتلميذه سيبويه، وابن جني رحم الله الجميع، وهؤلاء الثلاثة هم رواد البحث الصوتي في ميادينهم؛ فالخليل رحمه الله رائد البحث الصوتي المعجمي، وسيبويه رحمه الله رائد البحث الصوتي النحوي، وابن جني رحمه الله رائد الدرس الصوتي اللغوي، وهذا إجمالاً تفصيله في الآتي:

### 1- الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله (ت: 170هـ)<sup>1</sup>:

الخليل بن أحمد رحمه الله؛ سيد الأدباء في علمه وزهده؛ كما يُطلق عليه ياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، وهو كذلك رائد الدراسات الصوتية المعجمية؛ فهو أول من ألف معجمًا عربيًا (كتاب العين)، معتمدًا في ترتيبه على أساس صوتي بحت؛ وهو مخارج الأصوات من الحلق إلى الشفتين، مرتبًا الأصوات من الأبعد مخرجًا إلى الأقرب، ثم إنه خلال عمله ذلك مرَّ على كثير من القضايا الصوتية ونبه عليها؛ من قبيل: الحركات القصيرة والطويلة، والضوابط الدقيقة لمعرفة الكلمات العربية الأصيلة من الدخيلة، من خلال عدة أحرفها ووجود حروف الذلاقة فيها من عدمه، ونظام التقليلات في اشتقاق الكلم، وغيرها من المسائل التي عُدَّ لأجلها الخليل رائد الدراسات الصوتية المعجمية بحق<sup>2</sup>.

### 2- سيبويه رحمه الله (ت: 180هـ)<sup>3</sup>:

سيبويه رحمه الله؛ عمرو بن عثمان، أنجب تلاميذ الخليل، وأكثرهم شهرةً، بكتابه في النحو (الكتاب)، وهو أيضًا ممن كان له السبق في دراسة الأصوات العربية؛ إذ خصَّص أبوابًا في أواخر (الكتاب) للإعلال والقلب والإبدال والإدغام، ممَّا يُعدُّ من صميم البحث الصوتي، بل إن بعض الباحثين عدَّ صنيع سيبويه في (الكتاب)؛ أوفى من صنيع شيخه الخليل في (العين)، وأكثر دقة؛ وذلك من خلال تصنيف الأصوات إلى ثنائية (المخارج والصفات)، والتدقيق في أوضاع الأوتار الصوتية عند الكلام عن الجهر والهمس وما إليها من الصفات، ثم تعرضه للأصوات وما يعتورها من التغييرات عند التآلف والتركيب في السياق اللغوي؛ من الإدغام والإبدال والإعلال والقلب وغيرها من البحوث الأصيلة فعلاً في الدرس الصوتي النحوي.

وعلى ذلك؛ فإننا إذا اعتبرنا الخليل بن أحمد رحمه الله رائد الدراسات الصوتية المعجمية؛ فإن تلميذه

سيبويه رحمه الله رائد الدراسات الصوتية النحوية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج3، ص1260.

<sup>2</sup> يُنظر: فوزية سرير عبد الله، الدرس الصوتي العربي نشأة وتطورا، ص134-135.

<sup>3</sup> يُنظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ص2122.

<sup>4</sup> يُنظر: فوزية سرير عبد الله، الدرس الصوتي العربي نشأة وتطورا، ص135-136.

### 3- ابن جني رحمه الله (ت: 392هـ)<sup>1</sup>:

أبو الفتح عثمان بن جني؛ من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنّف في ذلك كتباً أبرّ بها على المتقدمين، وأعجز المتأخرين، كما يقول عنه ياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، وقد ألف في خصوص الدراسة الصوتية - التي نحن بصددّها - كتابه (سر صناعة الإعراب)، إذ يرى الباحثون أن المهتمين بالدراسات الصوتية بعد سيوييه رحمه الله عالمةً عليه في تقسيم الحروف وبيان مخارجها وصفاتها وسائر مباحثها، ولم يزيدوا على ما ذكر كبيرَ شيءٍ، حتى جاء ابن جني رحمه الله، فأفرد الدرس الصوتي العربي بكتابٍ (سر صناعة الإعراب)، ورتب مسأله ترتيباً مُحكماً، فتجد فيه الكلام عن طبيعة الصوت ما هو، ثم الجهاز الصوتي المسؤول عن إصدار الحروف، ثم مخارج الحروف، والحروف وأقسامها؛ أصلية وفرعية، وصفات الحروف خاصها وعامها، وما يطرأ عليها من الحركات والسكنات، والصحة والاعتلال، وغيرها من المباحث الصوتية الدقيقة، التي عُدَّ لأجلها ابن جني رحمه الله رائد الدراسات الصوتية اللغوية<sup>2</sup>.

#### المقصد الأول: الخطابي رائد الإعجاز الصوتي التأثري

لا ريب أن من ألقى نظرةً في تاريخ الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، سيُلفي أن الخطابي رحمه الله (ت: 388هـ) مسبوّقٌ إلى الكلام عن القضايا الصوتية بصفة عامّة، كما أثبتنا بعض ذلك في المقدمة؛ عند الكلام عن أبرز رواد البحث الصوتي، فما سبب التركيز هنا على الخطابي بالذات؟ وجواب هذا السؤال: هو أنّ الخطابي رحمه الله لم يتكلم عن الدرس الصوتي العربي بصفة عامة كما فعل هؤلاء الرواد المذكورون، بل إنه علّق البحث الصوتي بالقرآن الكريم، بل بوجهٍ من وجوه إعجازه هو (الإعجاز الصوتي).

ثم إنه جمع في كلامه عن الجانب الصوتي في القرآن الكريم؛ بين شيئين قلَّ من جمع بينهما، ألا وهما: وصفُ الظاهرة، وبيان الأثر. وذلك ما أثبتته رحمه الله في ختام كتابه (بيان إعجاز القرآن)، بعد أن ذكر أوجه الإعجاز الثلاثة التي قيلت قبله (الصرفة والإخبار بالغيوب والبلاغة)، ثم تفرغ لبيان الوجه الذي توصل إليه هو بعد طول نظرٍ ودوام فحصٍ.

قال رحمه الله: "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحادهم؛ وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً، إذا

<sup>1</sup> يُنظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص1585.

<sup>2</sup> يُنظر: زبيدة حنون، البحث الصوتي عند ابن جني على ضوء الدراسات الحديثة، ص90 وما بعدها.

قرع السمع؛ خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال؛ ومن الروعة والمهابة في أخرى؛ ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه؛ عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله؛ فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً<sup>1</sup>.

وكلام الخطابي رحمه الله هنا، عن أن القرآن الكريم يخلص منه إلى قلب سامعه لذة وحلاوة في حال من الأحوال، وروعة ومهابة في حالٍ أخرى؛ كأنه شرحٌ منه لنصِّ ذكره سابقاً في ثنايا الكتاب، وفحواه أن أسلوب القرآن العظيم جمع بين صفتين لا يُمكن الجمع بينهما إلا في القرآن الكريم، وهما صفتا الفخامة والعدوبة. قال رحمه الله: "فحازت بلاغاتُ القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانظمت لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نوعيتهما كالمتضادين؛ لأن العدوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كل واحد منهما عن الآخر؛ فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"<sup>2</sup>.

قال مصطفى مسلم رحمه الله: " وهذا الكلام الأخير للخطابي رحمه الله؛ بمثابة الشرح والتفصيل لما جعله الوصفين المتميزين للقرآن الكريم (الفخامة والعدوبة).

فنتيجة الفخامة؛ أن يشعر التالي للقرآن بالروعة والمهابة، ويدخل قلبه الوجيب والقلق من قوارعه وزواجه ووعيده وإنذاره.

ونتيجة العدوبة؛ هي تلك الحلاوة واللذة التي يتلمسها القارئ من خلال سطورهِ"<sup>3</sup>.

وهذا ما نبّهنا عليه سابقاً، وادّعينا أنه من دواعي التركيز على شخصية الخطابي في قضية الإعجاز الصوتي؛ وهو جمعه بين وصف الظاهرة وبيان الأثر، فوصف (الفخامة)؛ أثره في نفس السامع (الروعة والمهابة)، ووصف (العدوبة)؛ أثره (اللذة والحلاوة).

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص70.

<sup>2</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص26.

<sup>3</sup> مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص73.



بل إنه رحمه الله تجاوز إلى بيان أثر الأثر - إن صح التعبير -؛ فإن سامع القرآن الكريم المتأثر به، لن يقف أثره فيه على إحساسه بالروعة والمهابة، أو اللذة والحلاوة عند سماعه وانتهى الأمر، بل الأمر أعمق من ذلك بكثير، وقد عبّر عنه الخطابي رحمه الله بقوله: "يجول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله؛ فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً"<sup>1</sup>.

فأثر القرآن في النفوس - على ما بيّن الخطابي رحمه الله -؛ لا يقتصر على شعورها بالروعة والمهابة، أو الإحساس باللذة والحلاوة، بل يتجاوز ذلك إلى تغيير القناعات، وتبديل المعتقدات، وتحويل العدو مسالماً والكافر مؤمناً، يستوي في ذلك جنّة الناس وإنسهم. قال الخطابي رحمه الله: "خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد قتله، فسار إلى دار أخته، وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه؛ لم يلبث أن آمن.

وبعث الملاء من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليواقفوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة، وأبصره الملاء من قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به"<sup>2</sup>.

ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في الموسم على نفر الذين حضروه من الأنصار؛ آمنوا به، وعادوا إلى المدينة، فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن. وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن"<sup>3</sup>.

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) [الجن: 1-2]<sup>4</sup><sup>5</sup>. ثم إن الخطابي رحمه الله بعد أن ساق الشواهد الواقعية على هذا النوع من الإعجاز (الإعجاز الصوتي التأثيري)، وبيّن أثره في الإنس والجنّ على حدّ السواء؛ شعر كأنّ مُنازَعًا يُنازعه ومُحاجًّا يُحاجّه: أن ما الدليل

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص70.

<sup>2</sup> تُنظر لمزيد من الاطلاع القصة كاملة عند: ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص261-262.

<sup>3</sup> يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص54-55.

<sup>4</sup> يُنظر خبر استماع الجن للقرآن وسببه عند: ابن جرير الطبري، جامع البيان، ج23، ص647-648.

<sup>5</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص70-71.

على ما تدّعي؟ فاستعجل الخطابُ رحمه الله الجواب من القرآن الكريم نفسه. قال رحمه الله: "ومصدق ما وصفناه في أمر القرآن؛ في قوله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر: 21]، وفي قوله عز وجل: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَشُّعًا مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) [الزمر: 23]، وقال سبحانه: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) [العنكبوت: 51]، وقال سبحانه: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) [الأنفال: 2]، وقال سبحانه: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) [المائدة: 83]، في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، وهو من عظيم آياته ودلائل معجزاته<sup>1</sup>.

وبهذا السياق؛ فسح الخطابى رحمه الله لمن جاء بعده مجال التأصيل للإعجاز الصوتي التأثيري في القرآن الكريم، من خلال هذا العمل الذي يُعدُّ أشبه بالتفسير الموضوعي، وهو جمع الآيات القرآنية المتكاثرة في موضوع أثر القرآن الكريم على متلقيه.

ومن لطيف ما نُبِّه عليه في هذا الموضوع؛ أنّ الآيات التي ساقها الخطابى رحمه الله تدليلاً على إشارة القرآن الكريم نفسه إلى هذا النوع من الإعجاز (الإعجاز التأثيري)، أراد بها القول أنّ هذا التأثير لا يقتصر على الإنس والجنّ من المؤمنين به، بل إنه يتعداهم حتى إلى الكافرين به؛ كما في آية المائدة، بل يؤثر حتى في الجمادات، كما في آية الحشر.

هذه الجهود الطيبة من الخطابى رحمه الله في التأصيل للإعجاز الصوتي التأثيري، ووصف ظاهرته وبيان أثرها؛ كان لها أثرٌ بارزٌ فيمن جاء بعده ممن تكلم في القضية، ولعنا نشيرُ إلى شيءٍ من ذلك في المقصد الآتي.

### المقصد الثاني: أثر الخطابى في المهتمين بالدراسات الصوتية القرآنية

لإشارات الخطابى رحمه الله في الإعجاز الصوتي التأثيري أثرٌ بالغٌ فيمن جاء بعده من الدارسين، كانت مصدر إلهام لهم في تناول دقائق هذا المبحث.

- ولعل كلمة ابن عطية رحمه الله (ت: 542هـ) الشهيرة في هذا الباب: "وكتاب الله عز وجل؛ لو نُزعت منه لفظة؛ ثم أدير لسانُ العرب في أن يوجد أحسنُ منها؛ لم يوجد"<sup>2</sup>؛ إنما هي من أثر الخطابى رحمه الله في (بيان إعجاز القرآن)، حينما تكلم عن (ثلاثية اللفظ والمعنى والرباط الناظم)، وصدّر الكلام بالتنبيه على اللفظ فقال: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا

<sup>1</sup> الخطابى، بيان إعجاز القرآن، ص71.

<sup>2</sup> ابن عطية، المحرر الوجيز، ج1، ص52.

تأملت القرآن؛ وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني؛ فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نوعها وصفاتها<sup>1</sup>.

وبين الخطابي وابن عطية رحمهما الله قدر قرنٍ ونصفٍ من الزمان؛ فالأول متوفى سنة 388هـ، والآخر سنة 542هـ، وهذا المقدار كافٍ لإثبات استفادة اللاحق من السابق، خاصة ومؤلفات الخطابي رحمه الله شائعة ذائعة، ينتفع بها أهل العلم في عامة الأقطار<sup>2</sup>.

- وقل مثل ذلك في صنيع ابن الأثير رحمه الله (ت: 637هـ) في (المثل السائر)؛ فإن كلامه عن الصناعة اللفظية، وانتقاء الكلم العربية؛ واضح التأثير بالخطابي وابن عطية رحمهما الله جميعاً، ودونك هذا النصّ تقف على صدق ما ادّعينا. قال رحمه الله: "ومن عجيب ذلك؛ أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه وجلّ نظره.

فمن ذلك قوله تعالى: «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»، وقوله تعالى: «رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً»؛ فاستعمل (الجوف) في الأولى و(البطن) في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف يفعل؟

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: «ما كذب الفؤاد ما رأى»، وقوله: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»؛ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة، وإن كانا مختلفين في الوزن، ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 27.

<sup>2</sup> يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 17، ص 23. و: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، ج 1، ص 81. و: رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 4، ص 74.

<sup>3</sup> ابن الأثير، المثل السائر، ص 150.

وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذَا؛ وَجَدَ أَنْ بَصِمَاتِ الْخَطَّابِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَاضِحَةً، إِلَّا أَنَا سَنَقْتَصِرُ - فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ - عَلَى بَيَانِ أَثَرِهِ فِي عُلَمَائِنَا مِنَ أَعْلَامِ الْإِعْجَازِ الْمُحَدِّثِينَ؛ هُمَا: الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 1937م)، وَمُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ دِرَازٌ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 1958م)، وَبَيَانِ هَذَا الْإِجْمَالِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

### أَوَّلًا: مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 1937م)<sup>1</sup>:

لِلرَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي خُصُوصِ قَضِيَّةِ الْإِعْجَازِ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ سَمَّاهُ (إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَالبَلَاغَةَ النَّبَوِيَّةَ)، وَهُوَ يُمَثِّلُ فِي الْأَصْلِ، الْجُزْءَ الثَّانِيَّ مِنْ كِتَابِهِ الْكَبِيرِ (تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ)، وَيُعَدُّ كِتَابَ الرَّافِعِيِّ فِي الْإِعْجَازِ مِنْ أَوَائِلِ مَا كَتَبَ فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَعْدَ قُرُونٍ مُتَطَاوِلَةٍ لَمْ يُكْتَبْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِ السِّيُوطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 911هـ)، وَفِي هَذَا يَقُولُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْخَطِيبُ وَفَقَهُهُ اللَّهُ: "رَحِمَ اللَّهُ (مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ)، لَقَدْ كَانَ مِنْ أَوَّلِ مَنْ دَخَلَ هَذِهِ الْحَلْبَةَ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْعَصْرِ، وَأَفْسَحَ لَهُ مَكَانًا مَعَ رِجَالِهَا مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَلَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ السَّلْسَلَةُ تَنْقَطِعُ، وَكَادَ الْعَصْرُ يَنْقُضِي دُونَ أَنْ يَقُومَ فِيهِ رَجُلٌ يَحْمِلُ الرَّايَةَ فِي هَذَا الْمِيدَانِ، وَيُؤَدِّي لِلْقُرْآنِ حَقَّهُ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ جِيلٍ مِنْ أَجْيَالِ الْمُسْلِمِينَ.

إِنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ كِتَابَةً مُتَخَصِّصَةً قَلَّةً مَعْدُودَةً، وَأَغْلَبَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْقَلِيلِ؛ كَانَ يَدْخُلُ الْمِيدَانَ خَائِفًا، يُقَدِّمُ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى، تَهْيِيبًا لِلْمَوْقِفِ الْمَهِيْبِ، وَتَخُوفًا مِنَ التَّقْصِيرِ عَنِ الْوَفَاءِ بِحَقِّ هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ دَخَلَ هَذِهِ الْحَلْبَةَ هُوَ (جَلَالُ الدِّينِ السِّيُوطِيُّ) رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ نَاقِلًا أَكْثَرَ مِنْهُ بَاحِثًا مُؤَسَّسًا، وَهُوَ عَلَى أَيِّ؛ مَحْمُودٌ مَقْدُورٌ.

وَجَاءَ الرَّافِعِيُّ، فَكَانَ مَقْدَمًا جَرِيئًا، يَحْمِلُ قَلْبَ مُؤْمِنٍ وَعَقْلَ عَالِمٍ وَقَلَمَ أَدِيبٍ، وَبِهَذِهِ الْقُوَى؛ اسْتَطَاعَ أَنْ يَثْبِتَ أَقْدَامَهُ، وَأَنْ يَحْفَظَ تَوَازِنَهُ، وَأَنْ يَمْدَ يَدًا ثَابِتَةً إِلَى مَجَائِي الْقُرْآنِ فَيَقْطِفُ مِنْ ثَمَرَاتِهِ شَيْئًا مَوْفُورًا، يَقْدِمُهُ لِلدَّرَاسِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلِلْمُتَوَسِّمِينَ فِي آيَاتِهِ<sup>2</sup>.

وَبِمَا أَنَّ الرَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَدِيبًا مِنَ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَّةِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْمَتَوَقَّعِ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْجِهَةِ الْإِعْجَازِ الَّتِي يَذْهَبُ إِلَيْهَا: الْإِعْجَازُ اللَّغَوِيُّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ اسْتَعْرَقَ فِي بَيَانِهِ أَغْلَبَ كِتَابِهِ، مَعَ تَفْصِيْلَاتٍ مَاتِعَةٍ، وَتَدْقِيقَاتٍ مُحْكَمَةٍ، وَقَدْ بَدَأَ فِيهَا تَأَثُّرَهُ بِطَرَحِ الْخَطَّابِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْجَانِبِ الصَّوْتِيِّ بَارِزًا، مِنْ خِلَالِ ثَنَائِيَّةٍ (وَصَفِ الظَّاهِرَةِ، وَبَيَانِ الْأَثْرِ)، وَالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةً جَدًّا، وَلِذَلِكَ سَأَحَاوِلُ أَنْ أَنْتَقِي أَدَهَّهَا عَلَى الْمَقْصُودِ، وَأَطُوعَهَا لِتَبْلِيغِنَا إِلَى الْمَهْدَفِ الْمَنْشُودِ.

<sup>1</sup> يُنْظَرُ: مُحَمَّدٌ سَعِيدُ الْعَرِيَّانِ، حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ، ط3، الْمَكْتَبَةُ التِّجَارِيَّةُ الْكَبِيرَى، مِصْرَ، 1375هـ-1955م.

<sup>2</sup> عَبْدُ الْكَرِيمِ الْخَطِيبُ، الْإِعْجَازُ فِي دَرَسَاتِ السَّابِقِينَ، ص326.

ومن ذلك قوله رحمه الله: "فلما ورد عليهم أسلوب القرآن؛ رأوا ألفاظهم بأعيانها، متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته؛ ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه"<sup>1</sup>.

وهذا الكلام؛ - وإن كان أشبه ما يكون بـ(نقض العادة) عند الرماني، أو (بديع التأليف) عند الباقلايني رحم الله الجميع -؛ إلا أننا نلاحظ فيه - في الجانب المتعلق باللفظ -؛ أثراً بارزاً للخطابي رحمه الله في قوله: "حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه"<sup>2</sup>.

ومنه أيضاً قوله: "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملته، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمرٌ لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك؛ من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية؛ إنما هي في أوزان الكلمات وأجرام الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع"<sup>3</sup>.

هذا من جهة وصف الظاهرة.

وأما من جهة تأثير الصوت القرآني؛ فيقول رحمه الله: "فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدٌّ من الاسترسال إليه، والتوفر على الاصغاء، لا يستمله أمر من دونه، وإن كان أمر العادة، ولا يستنسه الشيطان، وإن كانت طاعته عندهم عبادة؛ فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس، مقطعاً مقطعاً، ونبرة نبرة، كأنها توقعه توقيعاً، ولا تتلوه تلاوة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الرافي، إعجاز القرآن، ص 131.

<sup>2</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 27.

<sup>3</sup> الرافي، إعجاز القرآن، ص 148.

<sup>4</sup> الرافي، إعجاز القرآن، ص 147.

وفي هذه العبارة للرافعي رحمه الله، تسترجع الأمثلة التي ضربها الخطابي رحمه الله لأثر استماع القرآن على قوم من المشركين؛ كما فعل الوليد بن عتبة حينما قرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم صدر سورة فصلت، فأرعى سمعه، وأعطى قيادته، حتى ألقى يديه خلفه، فكأن الرافعي يُعيد صياغة القصة بعبارة يكسوها طابع التعميم، وذلك لا يخفي عنا أثر الخطابي رحمه الله.

### ثانياً: محمد عبد الله دراز (ت: 1958م)<sup>1</sup>:

محمد عبد الله دراز رحمه الله من علماء الأزهر المعاصرين، الذين كتبوا في إعجاز القرآن الكريم، وله فيه كتابه (النبأ العظيم)، وقد خصص جزءاً كبيراً من الكتاب لبيان الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وجزء غير قليل من الإعجاز اللغوي، متعلق بالجانب الصوتي، والنصوص الشاهدة على هذا أيضاً كثيرة جداً.

فمن ذلك؛ قوله رحمه الله: "دع القارئ المجود يقرأ القرآن، يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغنائها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدًا وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب، لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد. ستجد اتساقًا واثلاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر؛ فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقى؛ فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا، فلا يلبث سمعك أن يمجه، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل، على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعرّوك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، ج6، ص246. و: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج2، ص239-256. و: رجب عبد المنصف، مقال بعنوان "من أعلام الفكر المعاصر؛ الدكتور محمد عبد الله دراز"، شبكة الألوكة.

<sup>2</sup> محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، 133-134.

وكلام العلامة دراز في هذا أقرب ما يكون إلى كلام الرافعي في (إعجاز القرآن)، وقد سبق أن أشرنا إلى تأثير الرافعي بالخطابي في هذه الجزئية.

ومن جليل ما نبه عليه الشيخ رحمه الله؛ أن هذا الجمال التأثيري الصوتي للقرآن الكريم؛ إنما هو وسيلة لاستقطاب المتلقين إلى جمال باطن، هو أعظم وأجل من هذا الجمال الظاهر، ألا وهو جمال المعاني والهدايات. يقول رحمه الله: "فإنه جلت قدرته، قد أجرى سنته في نظام هذا العالم، أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقاءها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء، ورابطة المحبة، قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم؛ قضت حكمته أن يختار لها صواناً يجيبها إلى الناس بعدوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الهداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعناء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل، ومن أجل ذلك؛ سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم، ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9]"<sup>1</sup>.

وهذا من النصوص الرائقة الجميلة التي تعتبر من زيادات الشيخ على من سبقه، وإن استفاد من الخطابي رحمه الله على الأقل في طريقة معالجة درس الصوتي القرآني، وهي على ما ذكرنا في مواضع من هذا البحث: وصف الظاهرة، وبيان الأثر.

### خاتمة

لا ينفكُ باحثٌ في قضية الإعجاز الصوتي عند الإمام الخطابي رحمه الله عن تحصيل فوائد وجني عوائد، لم تكن لتقع له إلاً باقتحام ميدانها الوعر، والنَّهْل من معينها الثَّرِّ، وسأحاول أن أسجل في هذه الخاتمة بعضها النتائج المتوصَّل إليها؛ فأقول:

- أشهر رواد البحث الصوتي العربي ثلاثة: الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه وابن جني رحمهم الله جميعاً، ويمكن أن نصفهم بالآتي: أمَّا الخليل؛ فرائد البحث الصوتي المعجمي، وأمَّا سيبويه؛ فرائد البحث الصوتي النحوي، وأمَّا ابن جني؛ فرائد البحث الصوتي اللغوي.

<sup>1</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 135-136.

- لم يحفل المتقدمون ولا المتأخرون من المهتمين بالدراسات الصوتية القرآنية؛ بتحريف مصطلح (الإعجاز الصوتي)، ولذلك حاولنا في هذه الدراسة أن نصل إلى حدِّ له، والأقرب فيه أنه: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به في الجانب الصوتي؛ وصفًا وأثرًا.

- الخطابي رحمه الله من الشخصيات الجديرة بالدراسة في قضية الإعجاز الصوتي التأثيري؛ كونه من الرواد الذين أدرجوا الدرس الصوتي في المجال القرآني، ثم إنه جمع بين وصف الظاهرة وبيان الأثر، ولم يقتصر على أحدهما دون الآخر.

- بيّن الخطابي رحمه الله أن الأسلوب القرآني يتّصف بالفخامة والعدوبة، وهما صفتان متضادّتان لا تجتمعان إلا في القرآن الكريم دلالة على أنه آية من عند الله حقًا، وأن الرجل الذي جاء به رسول الله صدقًا. - لم يقتصر تأثير الصوت القرآني فخامة وعدوبةً، على ما يحصل للسامع من روعة ومهابة، أو لذة وحلاوة، بل تجاوز إلى ما يمكن أن نسميه أثر الأثر؛ وهو تغيير القناعات، وتبديل المعتقدات، وتحويل العدو مسالمًا والكافر مؤمنًا.

- تأثير القرآن الكريم حاصل في كافر الناس ومؤمنهم، وإنسهم وجنهم، بل وحتى في الجمادات، وقد دلل الخطابي رحمه الله على كل جزئية مما ذكر من القرآن الكريم نفسه. هذا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

### توصية

لا يفوتني في هذه المناسبة؛ وقد تشرفت بدراسة جانب من الإعجاز الصوتي التأثيري عند الخطابي رحمه الله، وبيان أثره البارز فيمن كان بعده ممن طرق المسألة؛ أن أنبه على موضوعٍ مهمٍّ جدًّا برّز فيه الخطابي رحمه الله، ولكنه في نظري لم يُعط حَقُّه تنويهاً وإشادةً، ألا وهو موضوع (النظم)، وقد تكلم فيه الخطابي رحمه الله كلامًا متينًا عند تأصيله لثلاثية (اللفظ الحامل، والمعنى القائم، والرباط الناظم)، إلا أنّ المهتمين بقضية النظم يتجه نظرهم رأسًا إلى الجرجاني رحمه الله (ت: 471هـ)، ويُهملون الخطابي رحمه الله (ت: 388هـ)، مع أنه سابق له زمنًا بنحو قرنٍ من الزمان، ولذلك فإني أقترح على الباحثين دراسةً في النظم عند الخطابي رحمه الله، ولتكن بعنوان: النظم قبل الجرجاني رحمه الله - الخطابي رحمه الله نموذجًا -.

### قائمة المصادر والمراجع

#### (1) الكتب



- 1- ابن الأثير أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دط، المكتبة العصرية، لبنان، 1420هـ.
- 2- ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن وزملاؤه، ط2، دار العاصمة، السعودية، 1419هـ-1999م.
- 3- ابن عطية عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1422هـ.
- 4- ابن هشام جمال الدين عبد الملك، السيرة النبوية، دط، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مصر، دت.
- 5- البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، السعودية، 1422هـ.
- 6- حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دط، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م.
- 7- الحموي ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1414هـ-1993م.
- 8- الخطابي حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.
- 9- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، دط، دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1983م.
- 10- دراز محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات في القرآن الكريم، تقديم عبد العظيم المطعني، دط، دار القلم، سوريا، 1426هـ-2005م.
- 11- الذهبي محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1405هـ-1985م.
- 12- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط8، دار الكتاب العربي، لبنان، 1425هـ-2005م.
- 13- الرماني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.

- 14- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، دت.
- 15- الزركلي خير الدين بن محمود، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، لبنان، 2002م.
- 16- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م.
- 17- عبد الحميد هندراوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، دط، الدار الثقافية للنشر، مصر، 2004م.
- 18- عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ط1، دار الفكر العربي، لبنان، 1974م.
- 19- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دط، مكتبة المثنى، لبنان، دت.
- 20- محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ط1، دار القلم، سوريا، 1415هـ-1995م.
- 21- محمد سعيد العريان، حياة الرافي، ط3، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1375هـ-1955م.
- 22- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي، لبنان، دت.
- 23- مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 1426هـ-2005م.
- 24- النووي يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1392هـ.

## (2) المجالات

- 25- بلقاسم دفة، مقال "نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - دراسة دلالية -"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان 2009.
- 26- زبيدة حنون، مقال "البحث الصوتي عند ابن جني على ضوء الدراسات الحديثة"، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، العدد 15، جوان 2006.
- 27- سيد لوشي وماجد النجار، مقال بعنوان "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم (نظرة في كتب الباحثين العرب القدامى والمحدثين)"، مجلة أهل البيت، إيران، العدد التاسع، ص31-56.

- 28- فوزية سرير عبد الله، مقال "الدرس الصوتي العربي نشأة وتطورا إلى القرن الخامس الهجري"، مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة 2، المجلد 4، العدد 3، سبتمبر 2020.
- 29- وهيبة بوشريط، مقال "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - دراسة دلالية -"، مجلة التواصلية، جامعة المدية، 2017.

### (3) المواقع الالكترونية

- 30- رجب عبد المنصف، مقال بعنوان "من أعلام الفكر المعاصر؛ الدكتور محمد عبد الله دراز"، شبكة الألوكة. تاريخ النشر: 2011/09/28.
- 31- عبد العزيز أيت بها، مقال بعنوان "الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم"، ملتقى أهل التفسير، تاريخ النشر: 2014/12/05.